ابن الجوزى
(٥١٠-٥٩٧هـ)

نشأته وتربيته :

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن الجوزى، الفقيه الحنبلى، الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ والمكنى بأبى فرج (عبد البديع الخولى، ص ٣٠).

وقد لقب بالجوزى، نسبة إلى محلة الجوز بالبصرة، كما يرى البعض .ومن المفيد أن ننبه إلى أن ابن الجوزى هذا غير ابن قيم الجوزية صاحب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه، إذ لا صلة قربى بين العالمين الجليلين، ولكن حدث أن أصبح أصغر أبناء ابن الجوزى من أصحاب النفوذ فى بلاط الخليفة العباسى المستعصم، وقد أمر ذاك الابن ببناء مدرسة بدمشق عرفت بالمدرسة الجوزية، وإلى هذه المدرسة ينسب ابن قيم الجوزية لأن والده كان قيمًا عليها (عبد الرحمن صالح، ص ١١).

وقد وصف ابن الجوزى طرفًا من حياته الطفولية، حيث إنه كان صاحب همة عالية، ولما يزل بعد فى سن السادسة، حيث التحق بالكتاب ليتعلم كتاب الله، لكنه كان ذا نهج جدى يقربه من حياة الكبار لا الصغار، بل إنه استطاع، وهو فى سن السابعة أن يلتحق ببعض حلقات العلم فى المسجد، حيث كان ينصت جيدًا، حتى إذا عاد إلى البيت سارع إلى كتابة ما سمعه .

فلما أن شب عن الطوق، حملته عمته إلى مسجد أبى الفضل بن ناصر، وكان خالاً له، ومن ثم اهتم به وأسمعه الحديث وحفظ القرآن الكريم وقرأه بالروايات على جماعة من القراء، واهتم بطلب العلم فى كثير من الفنون (عبد البديع، ص ٣١).

وفى الوقت الذى كان أترابه ينشغلون بما يرفه عن النفس، وخاصة فى دور الطفولة

المتأخرة، إلا أنه لم يتعود المشاركة فى مثل هذا النهج من الحياة، وكأنه قد "شاخ" مبكرًا، فيأخذ نفسه بالزهد والصيام والسهر فى القيام والتحصيل العلمى، دون اكتفاء بمجال معرفى واحد، فكأنه أمام بستان تعددت أشجاره وأزهاره وألوانه، يطوف به، محاولاً أن يقتطع من كل نوع شيئًا .

ومع ولعه بعلوم وفنون شتى، لكنه مال أكثر إلى كل ما يتصل بالحديث النبوى.

وهو يحمد الله أن كان معظم الوقت، وفقًا لما نقوله حاليًّا "فى حاله" مما أبعد عنه الضغائن والحسد والنميمة والدساسين، وكان من نتيجة ذلك أن أسلم على يديه نحو مائتين، وتاب فى مجالسه أكثر من مائة ألف، كما يذكر هو بنفسه (عبد البديع، ص ٣٢).

ولا يحسبن أحد أنه يبالغ فى ذلك، فقد شهد بما هو أكثر منه، الرحالة الشهير ابن جبير، فقد وصف بعض مجالسه العلمية وصف رجل مبهور، وكأن اللغة لا تسعفه حتى يصف بدقة وصدق ما كان يشاهده، ويكفى أن مما قال: "ثم إنه بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقًا، وذابت بها الأنفس احترامًا، إلى أن علا الضجيج، وترددت بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كلٌّ يلقى ناصيته بيده فيجزّها، ويمسح على رأسه داعيًا له، ومنهم من يغشى عليه فيرفع فى الأذرع إليه، فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثَبَجَ البحر، ونعتسف مفازات القفر إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل، لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة، والحمد لله على أن مَنَّ بلقاء من تشهد الجمادات بفضله ويضيق الوجود عن مثله" (رحلة ابن جبير، ص١٥٩) .

ومع ذلك فقد وجهت انتقادات حادة لابن الجوزى، على أساس أنه كان يستفيد أكثر علومه من الكتب التي لم يحكم ممارسة أهلها فيها، فكان ينقل من التصانيف من غير أن يكون متقنًا لذلك العلم من جهة الشيوخ، كما كان يصنف الكتاب، ولا يرجع إليه، بل ينشغل بغيره، وربما كتب في الوقت الواحد فى تصانيف عديدة، فمن هنا كثرة الغلط في بعض كتبه (منصور بانقا، ص ٥٠).

ورغم الشهرة العريضة التى استحقها ابن الجوزى بعلمه ووعظه وكثرة تصانيفه، فإن الحياة لم تصْفُ له، وابتلى بمحنتين (أعمار الأعيان، ص ٣٥) :

الأولى : أن بعض الرافضة وشى به إلى الخليفة الناصر، وكان الناصر يميل إلى الشيعة، ولم يكن له ميل إلى ابن الجوزى، فلما وشوا به إليه عن طريق هذا النموذج الشهير، الذى يبدو فى أشخاص، فى كل عهد "الوسواس الخناس"، أرسل من شتمه وأهانه وأخذه قبضًا باليد، وختم على داره، وشتت عياله، ثم حُمل إلى سفينة ونُفى إلى مدينة واسط، فحُبس بها فى بيت حرج ضيق، وكان أثناء ذلك الحبس يخدم نفسه، ويغسل ثوبه، ويطبخ، ويستقى الماء من البئر، وكانت هذه المحنة من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٥٩٥هـ، فكانت غاشية من الغواشى أطبقت عليه وهو فى الثمانين من عمره، ولم يعش بعدها سوى عامين .

والمحنة الثانية : صدرت من واحد من أهل بيته، فقد كانت فى ولد له يسمى "عليًّا" أخذ مصنفات والده وباعها بيع العبيد، ولمن يريد، ولما نفى والده إلى واسط، تحيّل على الكتب بالليل، وأخذ منها ما أراد، وباعها بثمن بخس دراهم معدودات، وكان أبوه قد هجره منذ سنين، فلما امتُحن صار حربًا عليه .

توجهه الفكرى :

ظهر ابن الجوزى فى وقت كانت البدع فيه أقوى من أى وقت مضى، حيث ظهرت الفرق الضالة، وأصبح للبدعة أنصار ومؤيدون، فما كان منه إلا أن وقف فى وجه تلك الفرق داعيًا للرجوع إلى نهج السلف الصالح (منصور بانقا، ص ٥١).

وكان ابن الجوزى من العلماء الذين يرون أن السلامة فى البعد عن الحكام، ولو اقترب إليهم لنال من عطائهم، ولكنه استغنى مما فى أيديهم وآثر الكفاف، وصان نفسه عن التزلف حتى يحفظ إيمانه فيكون باستطاعته الإنكار عليهم كلما رأى منهم ما ينبغى إنكاره، وقد ألف ابن الجوزى كتابًا أسماه (الشفاء فى مواعظ الملوك والخلفاء)، حثهم فيه على العدل حيث قال: "عدل السلطان خير من خصب الزمان"، كما حذرهم من الظلم والجور، وقال: "إن

الظلم مسلبة للنعم" (منصور بانقا، ص ٦٠).

كذلك لا بد أن نتنبه إلى أن ابن الجوزى عاش فى عصر كان هجوم الأعداء على الدولة الإسلامية متكررًا، وقد احتل الصليبيون بيت المقدس، الأمر الذى ترك أثرًا فى نفوس المسلمين عامة وعلمائها خاصة، من هنا كان للجهاد فى فكر ابن الجوزى حيزًا، حيث دعا إلى الجهاد وحث عليه، وأورد العديد من الأحاديث التى تظهر فضل الجهاد والمجاهدين، مستعينًا بما رواه أبو هريرة عندما قال : سأل رجل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال "الإيمان بالله، قال : ثم ماذا ؟ قال: الجهاد فى سبيل الله" . كما أورد حديث عبد الله بن أبى أوفى عن النبى ﷺ أنه قال: "اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف".

وابن الجوزى حنبلى المذهب، شديد التمسك به، كثير الثناء على الإمام أحمد بن حنبل، ويحدثنا عن سبب اختياره لمذهب الحنابلة على غيره، على أساس أننا إذا نظرنا في أدلة الشرع وأصول الفقه، وسير أحوال الأعلام المجتهدين، فسوف نرى هذا الرجل أوفرهم حظًا من تلك العلوم، وفضلاً عن علمه الغزير أنه كان أزهد الناس في الدنيا، و مع قوة الورع، ولم ينقل عن أحد من الأئمة أنه امتنع من إرفاق السلطان وهدايا الإخوان كامتناعه (منصور بانقا، ص ٣٩) .

ومع هذا الميل الشديد لمذهب ابن حنبل، فإنه كان يكره التعصب المذهبى، وينسب المتعصبين إلى قلة العلم، ولو كانوا علماء، فيقول إنه رأى جماعة من المنتسبين إلى العلم يعملون عمل العوام، فإذا صلى الحنبلى في مسجد شافعى، ولم يجهر "أى بالقنوت" غضبت الشافعية، وإذا صلى شافعى في مسجد حنبلى غضبت الحنابلة، ويصف هذا بأنه "مسألة اجتهادية والعصبية فيها مجرد الهوى"، بينما العلم يمنع من هذا .

الذكاء :

نحن نعلم أن (الذكاء) قد أصبح مبحثًا مهمًا في الدراسات النفسية منذ عدة عقود، ومن ثم فلا بد لنا أن نحمد لعالمنا ابن الجوزى أن يطرق هذا الموضوع، وإن كان يطرقه وفقًا لمعطيات

obeikandl.com

المعرفة التي كانت متوافرة في عهده بطبيعة الحال .

والذكاء في لغة العرب أصله "تمام الشيء .."، ومنه الذكاء في السن وهو تمام السن، ومنه الذكاء في الفهم، وهو أن يكون فهمًا تامًّا سريع القبول. وذكيت النار إذا أتممت إشعالها، ويقال أذكيتها، إذا أتممت وقودها (محمد خلف الله، ص ٢٩) .

لكن، لماذا ألف ابن الجوزى كتابًا عن "الأذكياء" ؟

هنا يشرح في مقدمته الأسباب التي دفعته إلى ذلك، حيث إن العقلاء يتفاوتون في موهبة العقل، ويتباينون في تحصيل ما يتقنه من التجارب والعلم، ومن ثم كان تأليف الكتاب ليجمع فيه أخبار الأذكياء الذين قويت فطنتهم وتوقد ذكاؤهم لقوة جوهرية عقولهم، ويحصر الأغراض التي يستهدفها من تأليف الكتاب في ثلاثة :

أحدها : معرفة أقدارهم بذكر أحوالهم.

والثانى : تلقيح ألباب السامعين إذا كان فيهم نوع استعد لنيل تلك المرتبة، وقد ثبت أن رؤية العاقل ومخالطته تفيد ذا اللب، فسماع أخباره يقوم مقام رؤيته.

والثالث : تأديب المعجب برأيه إذا سمع أخبار من تعسر عليه لحاقه .

ومن يتصفح الكتاب يجد أن ابن الجوزى، قد تناول قضايا مهمة في كل من علم النفس، والتربية، حيث تناول فضل العقل وماهيته، وحدد معنى الذهن والفهم والذكاء، وذكر العلامات التي يستدل بها على ذكاء الذكى، وأورد ما نقل عن السالفين مما يدل على قوة الفطنة، سواء أكانوا أنبياء أم صحابة أم خلفاء أم سلاطين ووزراء قضاة وزهادًا وفقهاء، كما أنه روى شيئًا من الحيل المأثورة من بعض الأذكياء، وطرفًا خاصة بالعوام وذكائهم، ثم تناول في تسعة أبواب ذكاء بعض الطوائف الخاصة، كالشعراء والمحاربين والمتطببين والصبيان والمجانين والنساء، وفى أواخر الكتاب تناول ذكاء الحيوان البهيم !! وكذلك تناول حالات تكشف عن غباء بعض الناس .

فإذا ما تنبهنا إلى أن ابن الجوزى كتب كل هذا في القرن الثانى عشر الميلادى، وأنه كان

مبرزًا في علم الحديث والوعظ، فضلاً عما أشرنا إليه من استغراق في مجالس وعظ تكالب عليه جمهور غفير، أدركنا أن هذا الرجل، بتناوله مثل هذه الموضوعات في تلك الفترة المبكرة إنما هو علامة عبقرية خاصة، حتى إن "خلف الله" كتب معقبًا على هذا: "أليس مما يطمئن له قلب الباحث العربى الحديث أن يجد من بين شيوخ الإسلام من اتجه إلى مثل هذا النوع من البحث والتأليف منذ أكثر من سبعة قرون ؟ ألا إنه لو عثر على مثل هذا الكتاب بين المؤلفات الأوربية القديمة لجعل له الباحثون مكانًا ظاهرًا في تاريخ علم النفس، ولاعتبروه من المراجع التي لا بد من دراستها لكل متخصص في هذا الفرع" (محمد خلف الله، ص ٣٠).

ومن أول ما يلفت النظر في عبارات ابن الجوزى، ذلك العنوان الذى يضعه، هو (الباب السابع) في سياق المنقول من ذلك عن نبينا ﷺ، كلمات تدل على قوة الفطنة الفطرية، وقوله في مستهل ذلك الباب "فأما ما حصل له بتلقى الوحى وتثقيفه، فذلك كثير، وليس هو مرادنا ههنا، إنما المراد القسم الأول".

هاتان العبارتان صريحتان في أن المؤلف قد اتجه بتفكيره إلى القوة الفطرية، وأنه حاول أن يتحاشى ما جاء عن طريق التلقين والتثقيف، وهاتان الناحيتان هما الخلاصة التي وصلت إليها جهود جمهرة كبيرة من العلماء المحدثين .

وللأذكياء علامات، فكيف يكشف عنها ابن الجوزى ؟

في وقتنا الحاضر هناك اختبارات ومقاييس وتجارب، لكن ابن الجوزى في زمنه لجأ إلى التجارب الإنسانية، فأورد العديد من الوقائع والأحداث، كل منها يشير إلى مظهر بعينه من الذكاء، لا يتسع المقام لبيانها، ونكتفى هنا بمثال موضوعه هو رسول الله ﷺ، فعن على – رضى الله عنه– قال : لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وجدنا عندها رجلين : رجلاً من قريش، ومولى لعتبة بن أبى معيط، فأما القرشى فأفلت، وأما مولى عتبة فأخذناه، فجعلنا نقول : كم القوم ؟ فيقول : هم والله كثير عددهم، شديد بأسهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه، حتى انتهوا به إلى النبى ﷺ، فقال له: كم القوم ؟ فرد : هم والله كثير عددهم، شديد بأسهم، فجهد النبى ﷺ أن يخبره كم هم، فأبى . ثم إن النبى ﷺ سأله : كم ينحرون من

الجزر ؟ فقال : عشرًا لكل يوم، قال رسول الله ﷺ: "القوم ألف، كل جزور لمائة وتبعها" (خلف الله، ص ٣٥) .

فهذه واحدة من روايات المؤلف المتعددة عن رسول الله ﷺ، وهى تصور حالاً وجد فيها الرسول، أو معضلة واجهته، استلزمت منه بذل الجهد والتفكير، فأمامه رجل يأبى أن يخبره عدد القوم، والرسول حريص أن يصل إلى ذلك العدد، وقد هداه ذكاؤه المتقد إلى الوصول من طريق غير مباشر، وظاهر أن نجاحه في هذا قد اعتمد على أربع خطوات :

الأولى : أنه وضع أمامه غاية جدّ في الحصول عليها، وهى تحديد العدد .

الثانية : أنه ابتكر إلى هذه الغاية طريقًا موصلة خفيت معالمها على مولى عتبة .

الثالثة : أنه رجع إلى التجارب المكتسبة في كفاية الجزور مائة من الناس .

الرابعة : أنه وجد علاقة (١ : ١٠٠) بين شيئين، وأحد الطرفين (١٠) فاستنتج الطرف الثانى (١٠٠٠).

وهذه الخطوات، هى في الحقيقة صميم الذكاء كما يتصوره المحدثون .

ومن الأمثلة التي ساقها ابن الجوزى، ما عماده الاحتيال والمهارة العملية، كالذى روى أنه كان في بغداد في طرف الجسر سائلان أعميان، أحدهما يتوسل بعلى، والآخر بمعاوية، ويتعصب لهما الناس، ويجمعان القطع، فإذا انصرفا اقتسما القطع .

ومثال آخر : دخل عمران بن حطان يومًا على امرأته وكان قبيحًا دميمًا قصيرًا، وقد تزينت وكانت حسناء، فنظر إليها وأدام النظرة، ولما سألته عما يجعله يطيل النظر والتأمل فيها ؟ فقال لها : أنت والله جميلة، فقالت له : أبشر، فإنى وإياك في الجنة، وعندما سألها عن مصدر هذه البشرى أجابته : لأنك أعطيتَ مثلى فشكرتَ، وابتُليت بمثلك فصبرتُ، والصابر والشاكر في الجنة !!

العقل :

ولا شك أن الحديث عن الذكاء يستدعى بالضرورة تساؤلاً عما كان يعنيه ابن الجوزى بالعقل، والذى يكاد يتماهى مع الذكاء، فقد أشار إلى أربعة معانٍ تطلق على العقل (عبد الرحمن صالح، ص ٣١) :

١- الاستعداد الذى يمكن المرء من اكتساب العلوم، وهو ما قصده آخرون عندما قالوا بأنه نور يقذف في القلب يستعد به لإدراك الأشياء .

٢- العلم الذى وضع في الطباع بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، ومثال ذلك أن يدرك المرء أن الاثنين أكثر من الواحد .

٣- العلوم التي تستفاد من التجارب والخبرات التي يمر بها المرء .

٤- معرفة عواقب الأمور التي تقود إلى قمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة .

ويصف ابن الجوزى الإنسان العاقل بقوله : "يستدل على عقل العاقل بسكوته وسكونه وخفض بصره وحركاته في أماكنها اللائقة بها ومراقبته للعواقب، فلا تستفزه شهوة عاجلة عقباها ضرر، وتراه ينظر في الفضاء فيتخير الأعلى والأحمد عاقبة من مطعم، ومشرب، وملبس، وقول، وفعل، ويترك ما يخاف ضرره ويستعد لما يجوز وقوعه" (عبد الرحمن صالح، ص٣٣).

فالأقوال والأفعال الصادرة عن المرء معايير صادقة للحكم على مدى رجحان عقله، فالذى يدرك العوامل الماثلة وراء المواقف والنتائج المترتبة عليها، ويتصرف وفقًا لذلك- إنسان عاقل، بخلاف من يغتر بظواهر الأمور، ولا يتريث عند اختيار الحل المناسب للمشكلة الراهنة.

وفى كتابه (صيد الخاطر، ١٩٧٩) عدد ضخم من الأفكار والآراء المتنوعة، خص منها العقل بعدد طيب منها :

فمن ذلك، على سبيل المثال، التأكيد على أهمية "النظر في العاقبة" (ص٢٨٩)، ونحن نعلم من كتابات فيلسوف التربية الأمريكى "جون دوى" أنه كاد يرادف بين العقل وبين

التحسب لعواقب الأمور .

وهنا يروى ابن الجوزى أن الغلاء كان قد اشتد ببغداد في أول خمس وسبعين، وكلما جاء الشعير، زاد السعر، فتدافع الناس على اشتراء الطعام، فاغتبط من يستعد كل سنة بزرع ما يقوته، وفرح من بادر في أول النيسان (أبريل) على اشتراء الطعام قبل أن يضاعف ثمنه، وأخرج الفقراء ما في بيوتهم فرموه في سوق الهوان، وبان ذل نفوس كانت عزيزة .

استلفت هذا نظر ابن الجوزى وخاطب نفسه: "يا نفس خذى من هذه الحال إشارة ليغبطن من له عمل صالح وقت الحاجة إليه، وليفرحن من له جواب عند إقبال المسألة . وكل الويل على المفرط الذى لا ينظر في عاقبته، فتنبهى" (ص ٢٩٠).

كذلك روى ابن الجوزى (ص٥٦٦) أن رجلا استأذن على قاضى القضاة ابن أبى دؤاد، قال : قولوا له أبو جعفر بالباب . فلما سمع هشّ لذلك وقال : ائذنوا له، فدخل، فقام، وتلقاه وأكرمه وأعطاه خمسة آلاف، وودعه !

فقيل له : رجل من العوام فعلت به هذا ؟

قال : إنى كنت فقيرًا، وكان هذا صديقًا، فجئته يومًا فقلت له : أنا جائع، فقال : اجلس، وخرج، فجاء بشواء وحلوى وخبز، فقال : كل .

فقلت : كل معى . قال : لا . قلت: والله لا آكل حتى تأكل معى، فأكل، فجعل الدم يجرى من فمه! فقلت: ما هذا ؟ قال : مرض ! فقلت : والله لا بد أن تخبرنى.

قال : إنك لما جئتنى لم أملك شيئًا وكانت أسنانى مضببة بشريط من ذهب، فنزعته واشتريت به، فهلا أكافئ مثل هذا ؟!!

وفى موضع آخر من "صيد الخاطر"، نجده يوجب على الإنسان أن يقدر في نفقته وإن رأى الدنيا مقبلة، لجواز أن تنقطع تلك الدنيا، وكذلك ينبغى للمعافى أن يُعِدّ للمرض، وللقوى أن يتهيأ للهرم "وفى الجملة، فالنظر في العواقب وفيما يجوز أن يقع شأن العقلاء، فأما النظر في الحالة الراهنة، فحالة الجهلة الحمقى، مثل أن يرى نفسه معافى وينسى المرض، أو غنيًّا

وينسى الفقر، أو يرى لذة عاجلة وينسى ما تجنى عواقبها، وليس للعقل شغل إلا النظر في العواقب .." (ص ٥٢٩).

وابن الجوزى بحكم توجهه الدينى، يسعى إلى استثمار ما منحه الله للإنسان من قوى عقلية لتثبيت الإيمان وترسيخه، ومن هنا فهو يقف متعجبًا من قوم يرفعون لافتة العقل، وفى الوقت نفسه يعترضون على حكمة الخالق، فمثل هؤلاء ينبغى أن يقال لهم : هذا الفهم الذى دلكم على رد حكمته، أليس هو من منحه ؟ أفأعطاكم الكمال ورضى لنفسه بالنقص؟ ولينتهى بأن هذا مع الأسف الشديد يدخل صاحبه دائرة الكفر (ص ٤٩٨) .

ومما يستحق النظر بعين التقدير حقًّا هو مناداة ابن الجوزى بهذا الشعار الشهير الذى يتم تداوله عبر قرون، حيث عنون به خاطرة من خواطره (ص ٥٣٦) بـ (العقل السليم في الجسم السليم)، فمع تحيزه للعقل، ومع تأكيده على الروح، يؤكد الرجل وعيه بالتلازم بين الجانبين، العضوى والعقلى، وكيف أن نوع الطعام ومقداره يؤثر على الحالة العقلية، سواء بالسلب أو الإيجاب، ومن ثم نبه إلى الاعتدال في الطعام، بغير تقليل عن الحد الضرورى، ولا إفراط في الزيادة، وينبه إلى أن من تأمل حال رسول الله ﷺ، وجدهم يأخذون بمقدار ولا يتركون حظوظ النفس التي تصلحها .

ودعا ابن الجوزى إلى الالتزام بطريق رسول الله ﷺ وصحابته، ولا يلتفت إلى غير ذلك، فيقال : فلان الزاهد قد أكل الطين، وفلان كان يمشى حافيًا، وفلان بقى شهرًا ما أكل "فإن المحققين من هؤلاء المخلصين لله تعالى على غير الجادة، لأن الجادة اتباع رسول الله ﷺ وأصحابه وما كانوا يفعلون" (ص ٥٣٩).

ومع كثرة ما كتب ابن الجوزى عن أهمية العقل، وتحيزه له، وإقراره بضرورته لاستقامة حياة الإنسان، وروايته لكثير من الآثار المؤكدة لأهمية العقل ودوره، إلا أنه يقر في الوقت نفسه، أن العقل له حدود، ومن هنا فقد انتقد بعض علماء الكلام وأصحاب مدرسة الرأى في الفكر الإسلامى، الذين أطلقوا لعقولهم العنان في مناقشة وتصور أمور تتصل بالله – سبحانه وتعالى، بينما حكمة المولى تفوق قدرة العقل، ومن قاس أفعاله سبحانه على أفعالنا فقد أخطأ خطأً

فاحشًا، فالله سبحانه قد أخفى بعض الأمور، لحكمة يراها هو، عن الإنسان، ومن ثم فلا ينبغى للإنسان أن يقتحم مثل هذه الموضوعات، لأنه أصلاً لا يملك وسائل معرفتها المعرفة الحقة التي توقفه على كنهها (عبد البديع، ص ٨٥).

وإذا كان ابن الجوزى قد وضع للعقل حدودًا في تفهم الحكمة الإلهية، فإنه وضع له تحفظات في التعامل مع المخلوقين، وهو أن يتدبر ويتأمل ولا يقلد، لأن إبليس دخل على هذه الأمة من طريقين، أحدهما، التقليد للآباء والأسلاف، والآخر، الخوض فيما لا يدرك غوره، ويعجز الخائض عن الوصول إلى عمقه، وعلى العقل أن يسلم الأمر لله فيما يعجز عن فهمه، وأن يوظف قواه فيما خلق له من تدبر وتأمل، وفى التقليد إبطال لمنفعة العقل، وقبيح بمن أعطى شمعة يستضىء بها أن يطفئها ويمشى في الظلمة .

لماذا الاهتمام بالحمقى والمغفلين ؟

لابن الجوزى كتاب طريف فى عنوانه (أخبار الحمقى والمغفلين)، ووجه الغرابة أن المربين عادة يهتمون بما ينبغى أن يكون، وليس الحمق مما ينبغى أن يكون بطبيعة الحال، ولا الحمقى فئة ينبغى أن تأخذ حظها من البحث والدراسة، لكنه آثر أن يقوم بهذه الدراسة وكأنها صورة من الصور التى ننادى بضرورة الاهتمام بها، ألا وهى ما يمكن تسميته "بالبثالوجيا التربوية"، أو "علم الأمراض التربوية"، ومن ثم لا نكتفى بتصور النموذج والمثال التربوى، وإنما نتناول بالبحث والتحليل أيضًا ما لا ينبغى أن يكون، وخاصة فى واقعنا المجتمعى والتربوى.

ولم يترك ابن الجوزى القارئ مندهشًا، وإنما بادر في مقدمة الكتاب إلى شرح الدوافع التى دفعته إلى تأليف مثل هذا الكتاب، فكتب معددًا هذه الأسباب فيما يلى (أخبار الحمقى، ص ١٥) :

١- أن العاقل إذا سمع أخبارهم عرف قدر ما وهب له مما حرموه، فحثه ذلك على الشكر.

٢- أن ذكر المغفلين يحث المتيقظ على اتقاء أسباب الغفلة، إذا كان داخلاً تحت الكسب

وعامله فيه الرياضة، وأما إذا كانت الغفلة مجبولة فى الطباع، فإنها لا تكاد تقبل التغيير .

٣- أن يروح الإنسان قلبه بالنظر فى أحوال مثل هذه الفئة "المبخوسين"، حيث إن الحياة إذا سارت مستمرة فى اتجاه الجد والدأب، تمل، فتحتاج إلى بعض اللهو المباح، وقد قال ﷺ لحنظلة: "ساعة وساعة" (أخبار الحمقى، ص ١٦). وفى هذا السبب بصفة خاصة أفاض ابن الجوزى فى رواية الروايات تأكيدًا على أهمية أن يخرج الإنسان أحيانًا عن مناخ الدأب والجدية، ليسمع أو يقرأ بعض ما يخفف عن النفس ويروح عن القلب بعد أجواء العمل والجدية، من ذلك ما جاء عن مالك بن دينار الذى قال : كان الرجل قبلكم إذا ثقل عليه الحديث قال : إن الأذن مجاجة، والقلب حمض، فهاتوا من طرف الأخبار .

لكن، ما معنى الحمق ؟

هنا يقول ابن الجوزى، نقلاً عن ابن الأعرابى : الحماقة مأخوذة من حمقت السوق، إذا كسدت، فكأنه كاسد العقل والرأى، فلا يشاور، ولا يلتفت إليه فى أمر حرب .

هذا من الناحية اللغوية، أما من حيث المعنى العام، فإن معنى الحمق والتغفيل هو الغلط فى الوسيلة والطريق إلى المطلوب، مع صحة المطلوب، بخلاف الجنون، فإنه عبارة عن الخلل فى الوسيلة والمقصود معًا، فالأحمق مقصوده صحيح، لكن سلوكه الطريق فاسد (أخبار الحمقى، ص ٢٢).

ويسوق ابن الجوزى مثالا في الحمق رواه عن الجاحظ، الذى مر بمعلم كتب على لوح أحد الطلاب : (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكدوا لك كيدًا وأكيد كيدًا، فمهل الكافرين أمهلهم رويدًا)، وهو بذلك يخلط الشطر الأول من الآية ١٣ من سورة لقمان، بجزء من الآية الخامسة من سورة يوسف، وآخر آيتين من سورة الطارق .

فلما نبه المعلم إلى أنه أخطأ وأدخل سورة في سورة، قال "إذا كان أبوه يدخل شهرًا في شهر، فأنا أيضًا أدخل سورة في سورة، فلا آخذ شيئًا ولا ابنه يتعلم شيئًا".

فها هنا نجد المعلم يقصد أن يأخذ حقه في أجرة التعليم فى وقتها، لكنه أخطأ الوسيلة إلى ذلك، فوقع في هذا الخطأ الفاحش .

ويرى ابن الجوزى أن هناك علاقة بين قلة المعلومات وبين الحمق والغفلة، وهو يدلل على ذلك بمثال أورده يتصل برجل أحضر ابنه إلى القاضى كى يحجر عليه استنادًا إلى أنه لا يحسن قراءة آيتين من القرآن الكريم، فقال القاضى له : اقرأ يا فتى، فقرأ :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فسارع الأب قائلاً: أصلح الله القاضى، لا تحجر عليه لأنه قرأ آية أخرى عدا هاتين، فكانت النتيجة أن حجر القاضى على الأب وابنه (أخبار الحمقى والمغفلين، ص ٧٥).

والإنسان المتسم بالحمق يتصور أن ما يقع في موقف لا بد بالضرورة أن ينطبق على مواقف أخرى، على الرغم مما قد لا يكون بينها من تشابه حقيقى، بمعنى أن يضع الشىء فى غير محله، فمن ذلك ما فعله أعرابى يدعى مجرمًا، إذ صلى هذا الأعرابى خلف إمام وكان قد وقف في الصف الأول، فقرأ الإمام في سورة المرسلات ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ ﴾، حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٧ ﴾، تراجع صفًا آخر. وعندما قرأ الإمام ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ ﴾، ولى هاربًا، وهو يقول: ما أرى المطلوب غيرى (أخبار الحمقى، ص ١١٧).

وكان من الطبيعى أن ينبه ابن الجوزى على مجانبة صحبة الأحمق، وفقًا للقاعدة الشهيرة: المرء بقرينه يقرن .لكن من الملاحظ أن ابن الجوزى وهو يتناول هذه القضية لا يحلل ويصنف ويعلل ويستنبط، ولكن يقف عند حد سرد أقوال ومواقف مختلفة تدور كلها حول آثار سلبية تصيب من يصاحب الحمقى، مما لا بد أن يؤكد للمرء على ضرورة تجنب مثل هذه الصحبة.

وهو من هنا يبدأ الباب السادس من أخبار الحمقى والمغفلين المعنون بـ (فى التحذير من صحبة الأحمق) بقوله: "قال عليه السلام، دون إيضاح أى الأنبياء يقصد ؟ صحيح أن الغالب عند استشهاد المربين الإسلاميين بنبى أن يكون هو رسول الله محمد ﷺ، لكن نص

الحديث المشار إليه لا يعبر عن لغة رسول الله، فضلا عن أنه لم يسند القول إلى سند معين، لكن النص على أية حال يقول (أخبار الحمقى، ص ٣٦) : لا تؤاخِ الأحمق فإنه يشير عليك ويجهد نفسه فيخطئ، وربما يريد أن ينفعك فيضرك، وسكوته خيرٌ من نطقه، وبعده خير من قربه، وموته خير من حياته".

كذلك يروى ابن الجوزى، ما سبق أن أوردناه فى موضع سابق، عن الخليل بن أحمد قوله: الناس أربعة، رجـل يدرى ويدرى أنه يدرى، فذاك عالم فخذوا عنه، ورجل يدرى وهو لا يدرى أنه يدرى، فذاك ناسٍ فذكروه، ورجل لا يدرى وهو يدرى أنه لا يدرى، فذاك طالب فعلموه، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى، فذاك أحمق فارفضوه (أخبار الحمقى، ص٣٦).

لكن، ما الفرق بين العقل والذكاء ؟

يبدو أن ابن الجوزى فى بعض المواضع لا يفرق بين الاثنين، فالمستقرئ للباب الرابع من كتاب الأذكياء يجده قد كُرس لبيان الصفات الجسمية المشيرة إلى عقل العاقل وذكاء الذكى، وقد أشار فيه إلى عدد من الصفات من غير أن يخص أيًّا منها العقل أو الذكاء (الأذكياء، ص١٣)، وينطبق هذا الكلام على السمات التي تمثل عددًا من الأقوال والأفعال، مثل مراقبة نتائج الممارسات والاستعداد لما يجوز وقوعه.

بيد أن التمييز بين مفهوم كل من العقل والذكاء يظهر أكثر جلاء عندما نقارن بين المفهومين، فالعقل يشير إلى الطاقة التي تكون لدى الإنسان، وأيضًا المعارف التي يتحصلها بحيث تدخل في نسيج شخصيته، ومعنى هذا أن تتالى الخبرات على الإنسان يسهم في تنمية عقله، وعندما يتعامل العقل مع موقف جديد فإنه يؤثر الطريقة التي يستجيب بها صاحبه، وقد يستجيب عقل شخص بعينه بطريقتين مختلفتين، إحداهما تتصف بالدقة وسرعة الفهم، بينما تتسم الثانية بالغموض أو عدم الإدراك (عبد الرحمن صالح، ص ٤٢).

وإذا صح هذا، فإن العقل يدل على القوة الكامنة التي تمكن المرء من إدراك الحقائق والأشياء، وأما الذكاء، فيشير إلى الطريقة التي يتعامل بها العقل مع تلك الحقائق، فالإنسان،

في الغالب، لا يكون صاحب عقل ومفتقرًا إليه في وقت واحد، لكن يمكن وصف تعامله مع الأشياء بأنه ذكى أو أحمق، وهذا لا يعنى أنه لا يوجد ارتباط قوى بين وجود عقل راجح وصدور سلوك ذكى، بل يعنى أن كلاً من العقل والذكاء لا يتطابقان (عبد الرحمن صالح، ص ٤٣).

استقامة النظر إلى العلم :

لم يكن لابن الجوزى، وهو الذى تعدد في الكتابة وفى تأليف الكتب والموضوعات، أن يفوته ذلك الموضوع الأثير عند كافة علماء الإسلام، ألا وهو تقدير العلم وتحديد المقصود منه وكيف السبيل إليه، إلى غير هذا وذاك من موضوعات. وهو إذ نراه مبثوثًا في كثير من كتاباته إلا أننا سوف نقتصر هنا على ما جاء في كتابه (صيد الخاطر).

وأول ما تناوله ابن الجوزى في هذا الباب : تحبيب الناس في التعليم، فعرض إلى أن نفسه كانت تحدثه في بعض الأحيان إلى الانقطاع عن مجالس التعليم والتفرغ إلى الزهد والانقطاع عن الدنيا (صيد الخاطر، ص ٣٤)، لكن ضميره كان يرده في مثل هذا الحال إلى جادة الصواب، داعيًا إياه أن يسأل نفسه: "فإن طاب لى الزهد، وتمكنت من العزلة، فنفد ما بيدى أو احتاج بعض عائلتى، ألست أعود القهقرى ؟" والرد على ذلك واضح ومقنع "فدعنى أجمع ما يسد خلتى ويصوننى عن مسألة الناس، فإن مُد عمرى، كان نعم السبب، وإلا كان للعائلة، وألا أكون كراكب أراق ماءه لرؤية سراب، فلما ندم وقت الفوات، لم ينتفع بالندم" (ص ٣٥).

ويكرر ابن الجوزى تلك المقولة المعروفة في الفكر التربوى الإسلامى ألا وهى أن "لا خصيصة أشرف من العلم" (صيد الخاطر، ص ١٨٧)، وآية ذلك أن بزيادته صار آدم مسجودًا له، وبنقصانه صارت الملائكة ساجدة .

وفى مقابل ذلك، انتقد بعض العلماء الذين آثروا التنفل بالصلاة والصوم، عن تصنيف كتاب أو تعليم علم ينفع، بينما مثل هذا "بذر يكثر ريعه، ويمتد زمان نفعه" .

ويلفت ابن الجوزى النظر إلى العبادة بمعناها الضيق حيث لا يتعدى نفعها ممارسيها، بينما يتعدى نفع العلماء، وهم ورثة الأنبياء، وخلفاء الله الحقيقيون في الأرض، وهم الذين عليهم المعول، على أن يكون العلم مقترنًا بالعمل به، ومن هنا فقد قالت أم الدرداء لرجل : هل عملت بما علمت؟ قال : لا، قالت : فلِم تستكثر من حجج الله عليك ؟

وفى هذا السياق نفسه، قال أبو الدرداء : ويل لمن لم يعلم ولم يعمل مرة واحدة، وويل لمن علم ولم يعمل سبعين مرة .

وإذا كان أفضل الأشياء عند ابن الجوزى هو التزيد من العلم إلا أن من سوء التصرف الاقتصار على ما تم تحصيله لأن مثل هذا يوقع صاحبه في جُبّ الغرور، ويغلق على نفسه أبواب الاستفادة مما يجد من العلم (صيد الخاطر، ص ١٣٥).

لكننا نجد نظر ابن الجوزى معلقًا بمرتبة من المعرفة تعد هى أعلى المراتب، ألا وهى "التعلق بالله عز وجل" حيث يصف هذه المرتبة بأنها مرتبة "العرفان"، والواصل إليها هو "العارف"، وصاحب مثل هذه المرتبة "ليس في الدنيا ولا في الآخرة أطيب عيشًا من العارفين بالله عز وجل، فإن العارف به مستأنس به في خلوته" (ص ١٦١).

القائم بأمر التعليم :

لا نقصد بذلك "مسئولية تنفيذية إدارية"، وإنما نقصد به هذا الذى نصفه دائمًا بأنه قطب الرحى والعمود الفقرى، ألا وهو المعلم .

وحتى يتبين لنا موقف ابن الجوزى من هذه القضية، نجد أن الأمر يتناول – مرة أخرى - أولاً مدى ما أحله ابن الجوزى من تقدير "للعلم"، فشرف العلم وقيمته وضرورته، تعكس نفسها بالضرورة على من يكون عمله، نقل هذا العلم وتنميته، وهو المعلم .

وفى هذا نجد ابن الجوزى يقول : "ليس فى الوجود أشرف من العلم، كيف لا وهو الدليل، فإذا عدم وقع الضلال"، ويقول فى وصيته لولده "واعلم أن العلم يرفع الأرذال، فقد كان

خلق كثير من العلماء لا نسب لهم يذكر، ولا صورة تستحسن، وإنما شرفوا بالعلم" (لفتة الكبد فى نصيحة الولد، ص ٥٨) .

أما من حيث عملية التعليم نفسها، حيث نشر المعرفة وإذاعة العلم بين طالبيه ومستحقيه، فقد قال فى ذلك مربينا: "أما تعليم الطالبين وهداية المريدين، فإنه عبادة العالم" (صيد الخاطر، ص ٢٩) .

وحتى يعرف المعلم قيمة ما يعمل فى نقل المعرفة، عليه أن يثق أن ما يفعله يجاوز فائدة الطالب، ذلك لأن الطالب إذا كان صالحًا بصفة خاصة يمكن أن يسلك مع الآخرين وفق ما تعلم واستفاد، ومن هنا كان علماء السلف الناصحون لله تعالى ودينه يلقون شبك الاجتهاد لصيد طالب ينتفع الناس به فى حياتهم ومن بعدهم، ولو لم يكن للعالم إلا طالب واحد ينفع الله بعلمه وهديه لكفاه ذلك الطالب عند الله، فإنه لا يصل شىء من علمه إلى أحد، فينتفع به إلا كان له نصيب من الأجر (منصور بانقا حجر، ص ١٦١).

ولأن عيون الطلاب معقودة بمعلمهم، استلزم هذا أن يكون "قدوة" لهم فى قوله وفى سلوكه، مما دفع ابن الجوزى، مثل كثيرين، إلى الإلحاح على مسألة "العمل بالعلم"، ولذلك قال: "إنما فضل العلماء بالعمل، ولولا العمل به ما كان له معنى، وإذا لم أعمل به كنت كمن لا يفهم المقصود به، ويصير مثلى كمثل رجل جمع طعامًا وأطعم الجائع، ولم يأكل، فلم ينفعه ذلك من جوعه" (تلبيس إبليس، ص ١٥٧).

ومما يجب أن يتسم به المعلم عند ابن الجوزى، بذل أقصى ما تحتمله طاقته من العمل المطلوب منه، وهو ما تجمعه قيمة "الإخلاص"، ومن هنا قال ابن الجوزى: "إن فقدان الإخلاص يمنع قبول الأعمال" (صيد الخاطر، ص٢٤٨)، وهو فى ذلك يمتثل لما روى عن النبى ﷺ: "من طلب العلم ليجارى به العلماء ويمارى به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله النار"، حيث يعنى هذا أيضًا أن يكون المقصد الأساسى للمعلم فى عمله ابتغاء مرضاة الله عز وجل، ولعل هذا يكون امتثالاً أيضًا لقول المولى عز وجل فى سورة آل عمران: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾،

فالربانى هنا هو من يكون الله مقصده فى كل ما يفكر فيه ويعمل له، وما أعظمها صفة أن يكون المعلم بصفة خاصة ربانيًّا !

والصدق سمة أخرى، نعبر عنها فى عصرنا الحاضر "بالأمانة العلمية"، حيث كانت تتجلى فى زمن ابن الجوزى أن يكون المعلم أمينًا مع المتعلم، فإذا سئل عن مسألة وشعر أنه لا يعرف الجواب، فعليه أن يصارح السائل بأنه لا يعلم، وتلك سمة، نراها أيضًا مترددة لدى كثير من علماء التربية المسلمين، وهى أيضًا معروفة فى عالم الفقه، حيث يعبرون عن ذلك بقولهم "من قال لا أدرى فقد أفتى"، أما ابن الجوزى فقد قال فى هذا "فإن كثيرًا من العلماء يأنفون من قول لا أدرى، فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس، لئلا يقال جهلوا الجواب، وإن كانوا على غير يقين مما قالوا، وهذا نهاية الخذلان" (صيد الخاطر، ص١٦٢).

ولعل تعرض المعلم لموقف يضطر فيه أن يعترف بأنه لا يدرى دافعًا له إلى مزيد من التحصيل المعرفى، ومن هنا أكد ابن الجوزى على أنه "من اقتصر على ما يعلمه، فظنه كافيًا، استبد برأيه وصار تعظيمه لنفسه مانعًا من الاستفادة، والمذاكرة تبين له خطأه وربما كان معظمًا فى النفوس فلم يتجاسر على الرد عليه" (صيد الخاطر، ص ١٣٤)، ومن هنا أيضًا كان قوله - سبحانه وتعالى- ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾، ومما لا بد أن يدعو الإنسان ربه ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾.

وبعض المعلمين، يفهم خطأ أن بناء جسور ود مع المتعلمين وسائر الناس تعنى رفع الحواجز بينه وبينهم، ودون أن يقصد العكس بالتعالى على الناس والتكبر على المتعلمين، فإن المقصد الأساسى هو أن يحفظ هيبته أمام الناس، بتلك الموازنة الدقيقة بين أن يكون الإنسان بسيطًا ودودًا رفيقًا، وبين أن يكون مبتذلاً، ومن هنا قال ابن الجوزى: "فلا ينبغى للعالم أن ينبسط عند العوام حفظًا له، ومن أراد مباحًا فليستتر به عنهم" (صيد الخاطر، ١٨٥) .

وكان من الطبيعى أن يكون "حسن الخلق" مطلبًا أساسيًّا في تكوين المعلم وفى سلوكه، سواء مع تلاميذه أو مع غيره من الناس، فإذا كان هذا أمرًا مطلوبًا من كل مسلم على وجه العموم، فما بالنا بالمعلم الذى يحمل على عاتقه مهمة تنشئة الأبناء على منظومة من القيم

الأخلاقية التي شدد عليها الشرع، لدورها في بناء الأمة بناء يمكن أن يصمد أمام تحديات الزمان والأقوام، ومن هنا كتب ابن الجوزى (لفتة الكبد في نصيحة الولد، ص ٦٦): "فإذا اضطررت إلى مخالطة الناس فخالطهم بالحلم عنهم".

ويؤكد لنا ابن الجوزى وعيه بما قد يشوب العلاقة بين العالم وبين السلطة من شبهات، وهو الأمر الذى نراه ونلمسه بوضوح شديد في عصرنا الراهن، حيث أصبح الاعتماد كثيرًا على ما يعرف الآن "بالقوة الناعمة"، وهى قوة العلماء والمثقفين، وما يتصل بهما من هيئات وتنظيمات ووكالات، فحذر ابن الجوزى من القرب من أصحاب السلطة، وهو يبنى رأيه في هذا على مقولة يؤكد من خلالها على أنه "بقدر صعود الإنسان في الدنيا تنزل مرتبته في الآخرة" (صيد الخاطر، ص٣٤٤)، والاختلاط بأصحاب السلطة من شأنه أن يغمس العالم والمثقف في الكثير من هموم الدنيا وملذاتها: "فأما الصعود الذى سببه مخالطة السلاطين، فبعيد أن يسلم معه الدين، فإن وقعت سلامته ظاهرًا، فالعاقبة خطرة".

وهو يقارن بين حال المتفرغ لدنيا العلم والمعرفة والعرفان، وحال صاحب السلطة الذى يعيش أوقاتًا كثيرة قلقًا: "فإن أكل السلطان شيئًا خاف أن يكون قد طرح له فيه سم، وإن نام خاف أن يغتال، وهو وراء المغاليق لا يمكنه أن يخرج لفرجة، فإن خرج كان منزعجًا من أقرب الخلق إليه، واللذة التي ينالها تبرد عنده ولا تبقى له لذة مطعم ولا منكح" (صيد الخاطر، ص ٣٤٥).

ومع الأسف الشديد، فإن بعض هذا الذى أشار إليه ابن الجوزى من منغصات الحياة التي كانت تواجه السلطان، لم يعد لها وجود، فقد أصبحت هناك وسائل علمية دقيقة للكشف على مأكل الحاكم ومشربه قبل أن يتناوله، وأصبحت هناك أجهزة غاية في العلمية والدقة تكشف من بعد أى خطر يمكن أن يهب على صاحب السلطة !!

تقدير قيمة الحفظ والحث عليه :

ربما لا يتقبل تربويو اليوم هذا الأمر، لكن لا بد ألا ننسى أن لكل عصر قيمه وسياقاته،

وأن ما قد لا نقبله اليوم، ربما كان منشودًا ومتقبلاً بالأمس، وهذا ما يتعلق بالقضية الحالية، فما من كتاب فى التربية وطرائقها إلا ويندد بالحفظ، ناسين أنه كان يقوم بوظيفة جوهرية فى عملية التعليم والتعلم، فكما أننا اليوم ونحن نكتب على الحاسب الآلى، نقوم دائمًا بالدق على علامة "save"، أى "احفظ"، حيث إننا إذا لم نفعل ذلك فسوف نفقد المادة التى كتبناها، كذلك كان الأمر بالأمس، لكن كانت ذاكرة الإنسان هى التى يملكها مباشرة .

ونضيف إلى ذلك، ما سبق أن أشرنا إليه ربما أكثر من مرة، أن حفظ الأمس كان عوضًا عن "طباعة" الكتب والمعارف، حيث لم يكن معروفًا إلا النسخ، وهو الأمر الذى كانت دائرته محدودة للغاية قد لا تزيد مساحة انتشاره بالنسبة للكتاب الواحد عن عدد أصابع اليد، حتى إن الجاحظ احتال كى يتقبله صاحب حانوت كتب، حارسًا ليليًّا لينتهز الفرصة، فيحفظ بعض الكتب التى كان يتوق إلى قراءتها، لأنه لم يكن يملك من المال ما يتيح له أن يشترى نسخة من كل منها .

من هنا نفهم لماذا ألف ابن الجوزى رسالة صغيرة خصصها للحفظ من حيث الحث عليه وبيان أفضل الطرق إليه، وكذلك الإشارة إلى أبرز الحفاظ باعتبارهم "قدوة"، إذا عرفهم القارئ أو المتعلم، فلربما دفعه هذا إلى أن يفعل مثلما فعلوا .

بل لقد وصل الأمر بابن الجوزى إلى أن يرادف بين العلم وبين الحفظ، ففى الباب الأول من رسالته إذ يعنونه بـ "فى الحث على حفظ العلم"، نجد الحديث منصبًّا على تقدير قيمة العلم وليس الحفظ، مما يتكرر فى كتابات كثيرين، ومن ثم فلا داعى لتكراره، لكنه "حدس" ما دار أو سيدور فى خاطرنا فبادر، عقب ما أورد بعض النصوص الحاثة والمقدرة للعلم، كاتبًا: "وعلى هذا فليس العلم إلا ما حصل بالحفظ"، واستشهد بقول ينسب إلى محدث يمنى كبير "عبد الرزاق بن همام" الذى قال : "كل علم لا يدخل مع صاحبه الحمام، فلا تعده" (الحث على حفظ العلم، ص ٢٥).

ومما أنشده فى ذلك (ص ٢٦) :

وليس بعلم ما حوى القمطر ما العلم إلا ما حواه الصدر

ومن العجيب حقًّا، وابن الجوزى يعنون الباب الثانى بقوله "فى صفة من هو أهل الحفظ من حيث الصورة والحلية ومن ليس أهل" (ص ٢٧)، فهو يعتمد على توصيفات لشكل الرأس، بحيث تشير الأنف الغليظ الممتلئ، إلى قلة الفهم، والحدقة السوداء إلى كسل بطال. أما من حيث الهيئة الجسمية العامة، فإن الغباوة والغفلة فى الطول أكثر، ومتى تناسبت الأعضاء، واعتدل القوام كان العقل تامًّا .

وبطبيعة الحال، فليس هناك قرائن تجريبية تسند ابن الجوزى فى آرائه هذه، إلا بعض الخبرات الحياتية، التى هى محدودة بطبيعة الحال، لكن، على أية حال، فإن اعتدال المزاج وتكامل العقل مما يساعد على الحفظ، وخاصة فى الصغر، وقلة الانشغال بالدنيا.

وربما يكون غريبًا أن نقرأ للرجل نصحه بأن يبدأ الحفظ فى سن الخامسة، وهو غالبًا يقيس ذلك بما كان يحدث من بدء كثيرين من الأطفال بحفظ القرآن وهم فى الخامسة من العمر، لكن ذلك ما كان يجب أن نقيس عليه، فنحن نشجع الأطفال على حفظ القرآن ابتداء من هذا السن المبكر، حيث إن حفظه بعد هذا قد يكون عسيرًا، ولا نطلب أن يكون المتعلم فاهمًا لما يحفظ، مرجئين ذلك إلى مرحلة تالية، وكأننا نريد أن نضمن أولا خلو بال الصبى، قبل أن تتزاحم عليه الهموم، لكن ليس هذا مطلوبًا بالمنطق نفسه فى غير القرآن.

ووصل الأمر بابن الجوزى أن يكتب عن أنواع معينة من المأكولات تعين على الحفظ أو العكس، وكذلك بعض الأدوية (ص٣١)، وهى كلها أمور، مرة أخرى، ليست مبنية على تجارب علمية بقدر ما تستند إلى خبرات حياتية، وكأنها مما ينتمى إلى ما نسميه الآن "بالطب الشعبى" !

أما من حيث الطرق التربوية، فلعل أبرزها هو "التكرار" (ص ٣٥) "ومنهم من لا يحفظ القرآن إلا بعد التكرار الكثير، فينبغى للإنسان أن يعيد بعد الحفظ، ليثبت معه المحفوظ، وقد قال النبى ﷺ: "تعاهدوا القرآن فإنه أشد تفصيًا من صدور الرجال من النعم من عقلها" (مسند الإمام أحمد، ورواه مسلم، والبخارى).

لكننا لا ينبغى أن نتصور وكأن ابن الجوزى يريد تحويل المتعلم إلى مجرد آلة تحفظ وتستظهر،

فهو يركز على ضرورة "الفقه"، والذى لا يقصد به "علم الفقه"، بقدر ما يقصد الفقه "كعملية"، وهى ما يعنى الفهم والتدبر والوعى، فهو يكتب قائلا (ص ٣٩) : "وإن أقوامًا أذهبوا أعمارهم فى حفظ طرق الحديث، ولعمرى أن ذلك حسن، إلا أن تقديم غير ذلك أهم، فنرى أكثر هؤلاء المذكورين لا يعرفون أن الفقه هو ألزم من ذلك" .

نقد العلماء والمفكرين :

الوظيفة الأساسية للمفكر هى "النقد"، لأنه دائمًا يريد أن يتجاوز الواقع الذى يعيشه إلى ما هو أفضل، والخطوة الأولى حتى يتحقق ذلك هى أن يعرى ما هو واقع كاشفًا ما به من سلبيات وعورات .

ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن المفكر الناقد لا يقول إلا الحقيقة، وإنما هو دائمًا نقد من وجهة نظره، لكنه على أية حال يستحق التقدير لأنه يقوم بمسئوليته في المواجهة والمكاشفة، مهما كان هذا النقد وتلك المواجهة تعتمد على الرؤية الشخصية .

والفئات التي توجه إليها ابن الجوزى بالنقد كثيرة حقًّا، ضمنها كتابًا له باسم (تلبيس إبليس)، وكأن هذه الآراء والمواقف المستحقة للنقد إنما هى وساوس إبليس، ومن ثم يجب التخلص منها في الحال.

ومن الفئات التي وجه ابن الجوزى سهام النقد إليها هى فئة الفلاسفة، فكما نشاهد في أيامنا الحالية فئات قد "تغربت" و"تأمركت"، فقد حدث شىء مماثل في العصور الإسلامية، حيث اطلع نفر من المفكرين المسلمين على فلسفة اليونان فتأثروا بها تأثرًا شديدًا، نظرًا لانبهارهم بالهالة الضخمة التي أحاطت بها، فضلاً عما تميز به فلاسفة اليونان من ذكاء وفطنة، وانقلبوا يرددون بعض أفكارها التي تتصادم مع العقيدة الإسلامية، وبعضهم الآخر حاول أن يعيد تأويل النصوص الإسلامية حتى يوفق بينها وبين ما اعتقد في صحته من أفكار سقراط وأرسطو وأفلاطون وغيرهم، قال ابن الجوزى: "وقد لبّس إبليس على أقوام من أهل ملتنا فدخل عليهم من باب قوة ذكائهم وفطنتهم، فأراهم أن الصواب اتباع الفلاسفة

لكونهم حكماء قد صدرت منهم أفعال وأقوال دلت على نهاية الذكاء وكمال الفطنة" (تلبيس إبليس، ص ٥٢) .

وكان مدخل التأثر بفكر اليونان الفلسفى أن فلاسفتهم كانت لهم جهود في الهندسة والمنطق والفيزياء والطب، استطاعوا من خلالها أن يصلوا إلى معارف متميزة، لكنهم عندما تكلموا في "الإلهيات" وقعوا في التخليط، حتى إنهم أنكروا أن يكون للعالم صانع.

كذلك دخل إبليس على هذه الأمة فى عقائدها من طريقين، أحدهما التقليد للآباء والأسلاف، والآخر الخوض فيما لا يدرك غوره ويعجز الخائض عن طريق الوصول إلى عمقه، فأوقع أفراد هذه الفئة في صور من التخليط، علمًا بأن الله عز وجل ندد بالذين يستسلمون للتقليد، فقال في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾، وفى سورة المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾.

وينتهز ابن الجوزى الفرصة لينبه إلى أن التقليد والتمادى فيه بغير تفكير في العلل والسياقات فيه تعطيل للعقل "اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد وفى التقليد إبطال منفعة العقل لأنه إنما خلق للتأمل والتدبر"، ويستعين في مزيد من التوضيح بمثال رائع، فالعقل أشبه بالشمعة يضىء للإنسان طريقه في الظلام، فكيف يتأتى له أن يهمل ما مُنح لمنفعته وهدايته؟ "وقبيح بمن أعطى شمعة يستضىء بها أن يطفئها ويمشى في الظلمة" (تلبيس إبليس، ص٨٦).

فضلاً عن ذلك فابن الجوزى يؤكد على أن الانبهار ينبغى أن ينصرف إلى القول والعمل لا إلى الشخص، لأن الانبهار بالشخص كثيرًا ما يجر صاحبه إلى اتباع صاحب القول من غير أن يخضعه للتمحيص والنقد والتأمل والتفكير، ومن هنا شاع هذا القول الذى أصبح قاعدة فكرية وهو "الحق لا يعرف بالرجال . اعرف الحق تعرف أهله" .

وأما الطريق الثانى، فإن إبليس لما تمكن من الأغبياء فورطهم في التقليد، التفت إلى بعض

من فيهم ذكاء وفطنة "فاستغواهم على قدر تمكنه منهم، فمنهم من قبح عنده المحمود على التقليد وأمره بالنظر ثم استغوى كلاً من هؤلاء بفن، فمنهم من أراه أن الوقوف مع ظواهر الشرائع عجز فساقهم إلى مذهب الفلاسفة، ولم يزل بهؤلاء حتى أخرجهم عن الإسلام" (تلبيس إبليس، ص ٨٧).

ولم يقف نقد ابن الجوزى على تلك الفرق التي عرفت بتجرُّئها على العقيدة، مثل الرافضة، والباطنية، والخوارج، وإنما وجه سهام نقده أيضًا إلى نفر من العلماء الذين نذروا أنفسهم لتقصى الحديث النبوى من حيث إسناده، وحفظه، وهذا أمر منشود بطبيعة الحال، لكن ابن الجوزى أكد أن مما يزيد من فائدة هذا أن يخطو العالم نحو "الفقه بالدين"، مما يقتضى تناول الحديث بقدر متعمق من التفكير حتى يمكن أن يعى معانيه ومراميه، وعدم الالتفات إلى فقه الأحاديث أتاح الفرصة للبعض أن يقع في أحاديث غير متفقهة، ومن أمثلة ذلك أن بعض المشايخ يروى حديث رسول الله نهى فيه عن الحلق قبل صلاة الجمعة، بإسكان اللام، قيل إن واحدًا سمع ذلك فظل أربعين سنة لا يحلق رأسه قبل الصلاة إلى أن بين له من فقه الأمر إنما هو الحلق جمع حلقة، وإنما كره الاجتماع قبل الصلاة للعلم والمذاكرة وأمر أن يشتغل بالصلاة وينصت للخطبة (تلبيس إبليس، ص ١٢٢) .

كذلك فقد وجه سهام نقده إلى الفقهاء، وهؤلاء كانوا في أوائل العصر الإسلامى هم أهل القرآن والحديث، لكن الأمر اختلف إلى حد ما في عهود الضعف والتفكك، فإذا بالبعض يقول: يكفينا أن نعرف آيات الأحكام من القرآن، وأن نعتمد على الكتب المشهورة في الحديث كسنن أبى داود ونحوها، ثم زاد الطين بلة، وصار أحدهم يحتج بآية لا يعرف معناها، وبحديث لا يدرى أصحيح هو أم لا ؟ وربما حديث صحيح دون أن يعلم لضعف درايته بأدلة النقل وأصوله، وأن الفقه هو استنباط من القرآن الكريم والسنة الشريفة، فكيف يتأتى لمثل هؤلاء الذين لا يعرفون القرآن ولا السنة ؟!

ويعرض ابن الجوزى لأمراض "الجدل" التي شاعت عند بعض الفقهاء فجهلت أن هذا السلاح الجيد يمكن أن يكون مصدر سوء وجهالة. إن المجادلة وضعت لإظهار الحق وبيان أمر

الصواب، لذلك كان الفقيه قديمًا ينتقل من دليل إلى دليل، وإذا خفى على أحدهم شىء نبهه الآخر ما دام المقصود هو الحق وحده . أما المتأخرون فقد صار الفقيه إذا قاس على أصل بعلة يظنها، فقيل له : ما الدليل على أن الحكم في الأصل معلل بهذه العلة ؟ فإنه يقول : هذا الذى يظهر لى، فإن ظهر لكم ما هو أولى من ذلك فاذكروه، فإن المعترض لا يلزمنى ذكر ذلك (تلبيس إبليس، ص ١٢٧).

ولنقارن هذا بما قاله الإمام الشافعى: "ما ناظرت أحدًا فأنكر الحجة إلا سقط من عينى، ولا قبلها إلا وهبته، وما ناظرت أحدًا فباليت مع من كانت الحجة إن كانت معه صرت إليه" (تلبيس إبليس، ص ١٢٨).

ولعل من أبرز السلبيات التي أخذت على بعض الفقهاء، هو ما شاب علاقتهم بالأمراء والسلاطين من شبه ليس من العسير إيراد الأدلة المؤدية لصحتها سواء من حيث مداهنتهم، والوقوف موقفًا سلبيًّا ممن يرتكبونه أحيانًا من سوء العمل أو القول، والأدهى والأمر من ذلك تزيين ذلك لهم بإعطائهم المسوغات والمبررات، كل ذلك ابتغاء عرض الحياة الدنيا من مال أو مركز، ولو حصرنا النتائج السيئة التي يمكن أن تترتب على ذلك لوجدنا :

أ- الأمير يقول: إنه لولا أن يكون على صواب لأنكر عليه الفقيه .

ب- والعامى يقول: إنه لا بأس بهذا الأمير ولا بماله، ولا بأفعاله حيث إن فلانًا الفقيه يلازمه.

جـ- الفقيه، فإنه يفسد دينه .

ويوهم بعض الفقهاء أنفسهم ويوهمون الناس بأنهم إنما يخالطون الأمراء والحكام من أجل السعى في مصالح المسلمين وعامة الناس ممن يصعب عليهم أن تتاح لهم فرصة مقابلة الحاكم، بينما نرى جمهرة غير قليلة من هؤلاء يحرصون على ألا يعرف غيرهم الطريق إلى الحاكم استئثارًا به وخوفًا من مزاحمة الآخرين لهم . وإذا كان البعض يقول بأن المال الذى يأخذونه من السلاطين لهم فيه حق، فإنه من المعلوم أنها إن كانت من حرام لم يحل له منها شىء، وإن

كانت من شبهة، فتركها أولى، وإن كانت من مباح، جاز له الأخذ بمقدار مكانه من الدين.

ولأن علاقة العلماء بالسلطة مثار جدل ونقاش دائمَيْنِ، احتلت هذه القضية مساحة أوسع في حديث ابن الجوزى، وحكمه واضح في قوله: "وفى الجملة فالدخول على السلاطين خطر عظيم" (تلبيس إبليس، ١٢٩)، أما منطقه في ذلك فقوله إن البعض قد يكون حسن النية في بداية علاقته بصاحب السلطة، لكن كثرة العطايا لهم واستمرار إكرامهم، تجعلهم يلينون تدريجيًا حتى يصلوا إلى المرحلة التي عليها غيرهم من المداهنة والنفاق، وقد كان سفيان الثورى يقول: ما أخاف من إهانتهم لى إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبى إليهم !!

وقد كان علماء السلف يبعدون عن الأمراء، لما أظهر جورهم وظلمهم، فتطلبهم الأمراء لحاجتهم إليهم في الفتاوى وغير ذلك من شئون الملك والسلطة، فنشأ قوم سال لعابهم للدنيا فتعلموا العلوم التي تصلح للأمراء وحملوها إليهم لينالوا من دنياهم، ويدلك على أنهم إنما قصدوا بالعلوم الأمراء، أن الأمراء كانوا قديمًا يميلون إلى سماع الحجج في الأصول، فأظهر الناس علم الكلام، ثم مال بعض الأمراء إلى المناظرة في الفقه، فمال الناس إلى الجدل، ثم مال بعض الأمراء إلى المواعظ فمال خلق كثير من المعلمين إليها . ولما كان جمهور العوام يميلون إلى القصص، كثُر القصاص، وقل الفقهاء.

كذلك انتقد ابن الجوزى نفرًا من أهل اللغة والأدب، ويقصد بهم هؤلاء الذين شغلتهم علوم النحو واللغة عن المهمات اللازمة التى هى فرض عين عن معرفة ما يلزمهم من العبادات وما هو أولى بهم من آداب النفوس وصلاح القلوب، وبما هو أفضل من علوم التفسير والفقه، وهو يستند فى نقده هذا إلى أن علوم اللغة والأدب غير مرادة لذاتها، بل هى وسائل لغيرها، ومن ثم يصبح الانشغال بها فى حد ذاتها مضيعة للوقت وصرف للجهد عما ينبغى أن يتجه إليه، وعلى سبيل المثال، فإن مثل هذه العلوم المفروض أن تعين فى تفسير القرآن الكريم، كذلك ما يتصل بالفقه والحديث (تلبيس إبليس، ص ١٣٤).

ومن أعجب ما ساقه ابن الجوزى، ما ذكره عن نفر ممن تبحروا فى العلم، فى علوم الشرع من القرآن والحديث والفقه والأدب وغير ذلك، فإذا بإبليس يدخل فى روعهم أنهم قد أصبحوا

على قدر عالٍ من العظمة، فإذا كان قد كثف جهده فى طلب العلم، فهذا يعنى أن جوارحه بحاجة إلى الراحة من كلف التكاليف وليفتح لنفسه فى مشتهاها، وهو إن وقع فى زلة، فإن رصيده من العلم يدفع عنه العقوبة (تلبيس إبليس، ص ١٣٧)!

وهو يدحض هذا التفسير بأن العلماء إنما فضلوا بالعمل والعلم، ولولا العمل به لما كان له معنى "وإن لم أعمل به كنت كمن لم يفهم المقصود به ويصير مثلى كمثل رجل جمع الطعام ولم يأكل، فلم ينفعه ذلك من جوعه" (تلبيس إبليس، ص ١٣٨). وفضلاً عن ذلك فهناك ما ورد فى ذم من لم يعمل بالعلم، لقوله ﷺ: "أشد الناس عذابًا عالم لم ينفعه الله بعلمه"، وحكايته ﷺ عن رجل يلقى فى النار، فتندلق أقتابه فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه. وأيضًا أن يذكر له عقاب من هلك من العلماء التاركين للعمل بالعلم، ويكفى فى ذم العالم إذا لم يعمل قوله تعالى: (كمثل الحمار يحمل أسفارًا).

ومما يلبس إبليس على المتبحرين فى العلم، الذين يصلون ليلهم بنهارهم كدًّا وجهدًا واجتهادًا بأن يلقى فى قلوبهم حب انتشار الشهرة وعلو الصيت والرياسة، والذى يكشف عن ذلك أن الواقع فى قبضة وسوسة إبليس إذا رأى من هو أعلم منه شعر بغيظ وغصة، وهذا ليس إخلاصًا فى التعليم لأن المخلص فى علمه مثله مثل الأطباء الذين يداوون المرضى لله – سبحانه وتعالى–، فإذا شفى بعض المرضى على يد طبيب منهم فرح الآخر، وفى ذلك قال أحد علماء السلف : أدركت عشرين ومائة من أصحاب النبى ﷺ من الأنصار وما منهم رجل يسأل عن شىء إلا ود أن أخاه كفاه ولا يحدث بحديث إلا ودّ أن أخاه كفاه (تلبيس إبليس، ص ١٣٩).

ومن اللمحات المتعمقة مناقشة القضية الخاصة بالزهد، حيث ذهب عدد غير قليل من علماء المسلمين ومربيهم إلى الغلو فى الزهد فى الدنيا، ويشير ابن الجوزى إلى ما يحدث بالنسبة إلى الشخص العادى عندما يسمع ذم الدنيا فى القرآن المجيد والأحاديث، فيرى أن النجاة تكمن فى تركها والإعراض عنها، دون وعى حقيقى بما هو مذموم فى الدنيا، ومن هنا يجنح البعض إلى العزلة التامة، حتى ليترك أسرته وأولاده، ولو علم هؤلاء أن الدنيا لا تذم

لذاتها، وكيف يذم ما منّ الله تعالى به وما هو ضرورة فى بقاء الآدمى وسبب فى إعانته على تحصيل العلم من مطعم ومشرب وملبس ومسجد يصلى فيه، وإنما المذموم أخذ الشىء من غير حله أو تناوله على وجه السرف لا على مقدار الحاجة .

ومن ساروا على طريق الزهد فئات وأنواع، وقف ابن الجوزى أمام كثير منها داحضًا دعاويها، كاشفًا عما يلبسه إبليس عليها، ومن ذلك على سبيل المثال هؤلاء الذين أعرضوا عن العلم بحجة انشغالهم بالزهد، وهم فى الحقيقة بسلوكهم هذا قد استبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير، وأقوى الأدلة على ذلك أن نفع الزاهد لا يتعدى بابه، بينما نفع العالم هو بطبيعته متعدٍّ إلى الآخرين.

ومن أغرب الفئات التى عرض لها، صنف آثر ألا يزيد على خبز الشعير، ومنهم من لم يذق الفاكهة، ومنهم من قلل المطعم حتى يبس بدنه وأخذ يعذب نفسه بلبس الخشن من الثياب، ويمنع نفسه من الماء البارد، ولم يكن رسول الله ﷺ يسلك هذا المسلك، ولا كان أصحابه هكذا، فلقد كان يأكل اللحم ويحبه ويأكل الدجاج ويحب الحلوى، ويستعذب الماء، وكان سفيان الثورى إذا سافر حمل فى سفرته اللحم المشوى، ويعقب ابن الجوزى على كل هذا بقوله: "وينبغى للإنسان أن يعلم أن نفسه مطيته ولا بد من الرفق بها ليصل بها إلى المقصود، فليأخذ ما يصلحها وليترك ما يؤذيها من الشبع والإفراط فى تناول الشهوات، فإن ذلك يؤذى البدن والدين" (تلبيس إبليس، ص ١٦٠).

وكان من الضرورى أن يتناول ابن الجوزى الصوفية، باعتبارهم من جملة الزهاد، لكنهم انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال وتوسموا بسمات خاصة بهم، وكان التصوف فى بدء أمره يقوم على الزهد الكلى، لكن عددًا غير قليل من المنتسبين إليه بعد ذلك ابتذلوا طريقه وأدخلوا الكثير مما هو سيئ مما لصق بالطرق الصوفية، فضلا عن بعض شطحات فى التصوف النظرى أدخلت أفرادًا منهم دائرة الكفر .

وقد تناول ابن الجوزى عددًا من مشاهير الصوفية مثل المحاسبى، والحلاج، وذى النون، وسهل التسترى، والبسطامى، ناقدًا توجهاتهم إلى درجة التحذير من القراءة لهم، فضلا عن

تفصيلات كثيرة، وصلت إلى الحديث عن طعامهم وشرابهم وملابسهم وشاراتهم وأقوالهم، وأساليبهم فى ممارسة العبادات، وما يتصل بالسماع والغناء، وحكايات عنهم فى صحبة الأحداث، والتوكل، وقطع الأسباب، ودعوة بعضهم لترك التداوى، وترك طلب الأولاد، وأفعالهم المخالفة للشرع فى أسفارهم، وتركهم العلم، بل وقيام البعض منهم بإحراق كتب علم، ودعوة بعضهم إلى ترك النكاح، وما يزعمونه من كرامات .

وإذا كان البعض يدهش لكل هذه التفصيلات، فلا بد أن يعى أن الصراع كان شديدًا بين الفقهاء وأصحاب التصوف، وأن كثرة غالبة من العوام كانوا يتأثرون أكثر بتصرفات الصوفية، حتى إنهم تركوا آثارًا عملية وعقلية لدى جماهير من المسلمين، ومن ثم فإن مناقشة الكثير من هذا يعد نهجًا مهمًّا لنقد التربية الخاصة بعوام الناس، والسعى لتصحيحها لردها إلى صحيح الدين .

في سياسة الأبناء :

حيث نعنى بـ"السياسة" هنا الأساليب والمفاهيم الواجب اتباعها في معاملة الأبناء وتنشئتهم وتربيتهم وقد تناولت الدكتورة آمنة نصر في كتابها عن ابن الجوزى (١٩٨٧، ص ٢٧٠)، في رؤية عامة، هذه القضية، فنجد ابن الجوزى ينصح الأب أن يبدأ في تقويم ولده منذ الصغر خشية أن ينمو على اتباع الهوى، فيصير ذلك عنده طبعًا يكون رده عنه فيما بعد صعبًا. وامتلك ابن الجوزى بصرًا ثاقبًا في وعيه بالتفرقة بين النجباء من الصغار وغيرهم، ومن ثم يلح على الاهتمام بالنابغين، وهو الأمر الذى رأيناه في بعض النظم والفلسفات التربوية الحديثة .

ونلمس أيضًا عمق وعى ابن الجوزى بما لا بد أن يعامل به الآباء أبناءهم من حيث الرفق والتلطف، حيث إن القسوة يمكن أن تفسد الأخلاق بغرس الكراهية والحقد. وقد شاع بيننا أن نضرب أولادنا على الصلاة، ناسين أن "آخر الدواء الكى"، وخير ما استشهد به في هذا الشأن قولاً نسبه إلى سفيان الثورى، حيث سأله رجل: نضرب أولادنا على الصلاة ؟ فرد

بقوله : بل بشرهم. وفى هذا السياق كان زبيد اليافى يقول للصبيان : من صلى منكم فله خمس جوزات، إلى غير هذا وذاك من أساليب الرفق والتشجيع .

أما من حيث السن التى عندها يمكن للطفل أن يبدأ في التعلم، فقد رجح ابن الجوزى أن يكون هذا في سن الخامسة، خاصة وأن محور التعلم والتعليم كان هو القرآن الكريم والحديث الشريف، وهذه السن المبكرة هى التي تكون فيها استعدادات الطفل في أعلى مستوياتها وأزهى قدراتها (آمنة نصر، ص ٢٧١).

ولأن مجموعة الأصدقاء التي يرتبط بها الطفل يكون لها أبلغ الآثار على سلوكه ومفاهيمه، نجد ابن الجوزى يشدد على ضرورة مراقبة الآباء لهؤلاء، حتى لا يقع الأولاد في المحظور ويخالطوا قرناء سوء .

ولعل ما يصل بعملية التنشئة والتربية إلى أعلى ما يمكن تصوره من مراتب، هو ما ينبه ابن الجوزى به الآباء على أن الأبناء أودعهم الله عز وجل "أمانة" في أيديهم، وليس هناك ما هو أفضل من أن يكون الإنسان محافظًا على ما استودع من أمانة، وليس هناك ما هو أسوأ من أن يضيع الإنسان الأمانة، بمعنى ألا يحرص على صيانتها، ويتركها تتلف وتتبدد، وقد قال - سبحانه وتعالى- في سورة النساء: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴿٥٨﴾ ﴾، ويقول في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

مراجـــع:

١- أبو الفرج ابن الجوزى : أخبار الحمقى والمغفلين، بيروت، المكتب التجارى للطباعة والنشر، د.ت .

٢- _____: تلبيس إبليس، عنى بنشره محمد أمين المخزنجى ومحمد منير الدمشقى، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٤٠هـ.

٣- _____: الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، الإسكندرية، دار الدعوة، ١٩٨٣.

٤- _____: صيد الخاطر، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢، ط٢.

٥- _____: لفتة الكبد فى نصيحة الولد، بيروت، دار ابن حزم، ١٩٩٣.

٦- آمنة محمد نصر : أبو الفرج ابن الجوزى؛ آراؤه الكلامية والأخلاقية، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٧.

٧- عبد البديع عبد العزيز الخولى : التربية والتعليم عند ابن الجوزى ، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩١.

٨- عبد الرحمن صالح عبد الله : ابن الجوزى وتربية العقل، مكة المكرمة، شركة مكة للطباعة والنشر، ١٩٨٦.

٩- أحمد أحمد خلف الله : الذكاء عند ابن الجوزى، مجلة دراسات تربوية، القاهرة، عالم الكتب، يونية ١٩٨٧.

١٠- منصور بانقا حجر محمد : الفكر التربوى عند الإمام ابن الجوزى البغدادى، الخرطوم، معهد إسلام المعرفة، ٢٠٠٤.

obeikandl.com